أقل ما يمكن أن يقال فى العلاقات بين الأمم إنها أمر غير أكيد . فثمة التناقض بين السعى نحو الانسجام وبين ما يعترض ذلك من غموض وعدم انتظام .

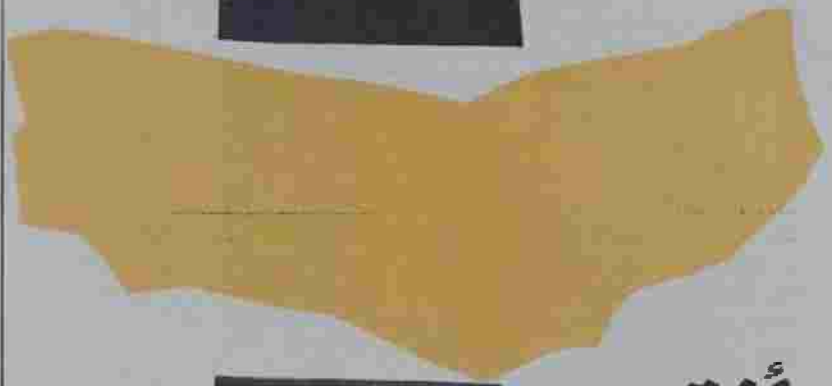

أنت تعلمنى وأنا أعلمك : كيف نتعايش !

ألوف هنر أيقن

هل تصبو الأمم حقا إلى السلام أو أن النزاع سيبقى يشكل جزءا لا يتجزأ من الظروف البشرية ؟ أو ترى ، على ما يفترضه البعض ، اننا نعمل هاتان القوتان معا فى آن واحد ، بشكل يخطر دوما للتوازن ، اما هذا الازدواج فى طبيعة الإنسان هو هو فى الواقع السبب فى وضعنا غير الأكيد . فلماذا امكانية نشوب حرب بين هولندا وبلجيكا مثلا ، لا يمكن أن تخطر على بال ، فى حين أنها امكانية واقعية ما بين تركيا وأوغندا ، ولماذا تمكن الحرب لكثيرين بين الهند وباكستان ولماذا تشكل امكانية ما بين سوريا وإسرائيل ؟ ولماذا تخوض فرنسا وانجلترا ثلاث حروب فى أجيال ثلاثة متعاقبة ، بينما يقوم اليوم جيل فى هذين البلدين هو الثانى على التوالى يرى الحرب بينهما بشكل مساحة أمرا أشد ما يكون بعدا عن العقل والمنطق ؟ ولماذا يقوم ذات المصريين الذين كانوا قد أقاموا أشد المظاهرات الجماهيرية تطرفا ضد إسرائيل فى مايو ١٩٦٧ حاملين رايات الموت والدمار ، لماذا يقوم ذات المصريين فى السنين الأخيرين بتنديد مظاهر ولعابير الرحاب والاحتفاء بالإسرائيليين ؟

لعل الزائر من الفضاء الخارجى – لذلك الزائر الذى طالما لجأ إلى استعارته كلما اتانا حيرة أو ارتباك ، يستنتج رغم أن الجنس البشرى منصاب بالبشرية أو أنه محور لإن الأسرار التى تتحكم فى احوال هذه التغيرات الخارج يقصر فيها عقله وادراكه . ولعله لكى يثبت رأيه يعمد إلى الزعم بأن هذه التغيرات مهما تعذر التكهن بامكانية حصولها انما يمكن تفسيرها عن طريق النظر إلى الوراء . فما أكثر التعليلات والتفسيرات التى أطلقت على اثر الزيارة التاريخية التى قام بها الرئيس أنور السادات للقدس فى تشرين الثانى ١٩٧٧ شرحا لمبادرته الشجاعة اخلاقة . بيد أنه على الرغم من أن كل هذه التعليلات والتفسيرات تعود إلى ما قبل تشرين الثانى ١٩٧٧ فليس ثمة من مبرر على الاطلاق يعلل هذا الحدث الدراماتيكى .

وسيدور بحثنا فى كيفية إدراك الأمم لمصالحها الوطنية وفى العوامل التى تخدم هذه المصلحة والعوامل التى تهددها . لقد كانت الولايات المتحدة ما بين سنتى ١٩٤٨ و ١٩٧٣ تنظر إلى الصين الشيوعية كعامل يهدد المصلحة الوطنية الأمريكية . ثم إنه سرعان ما تغيرت بين عشية وضحاها بحيث أصبحت الصين تعتبر اليوم أنها باخليف . وهنا من الطبيعى أن نتساءل كيف نحدد بالتزى الفكرة عن معنى المصلحة الوطنية بالذات ؟ هل تعبر الأمم مصالحها الوطنية بمجرد تعبير فكرتها عن معنى هذه المصلحة أو أن الفكرة عن طبيعة المصلحة الوطنية هى التى تتغير بتغير المصلحة ؟ إن السؤال فى غاية الأهمية ولكن الخوض فى تلافيفه قد يصرفنا عن الموضوع الذى نحن فيه والذى هو : كيف تتكون أفكار الأمم بعضها عن بعض ؟ وما هو دور الثقافة والتعليم فى صياغة هذه الأفكار ؟ وما هو دور الثقافة والتعليم فى عملية السلام بين مصر وإسرائيل ؟

إن أفكار أمة من الأمم تكون فى أصلها : افكارا مستقطة ذلك أن أفكار أى أمة عن نفسها تنصب على أنها قطب فريد فى الحضارة ، بينما سائر الأمم تصنفات متوحشة . هكذا كانت فكرة اليونان عن العالم المحيط بها . وهكذا كانت فكرة الصينيين عن أنفسهم من جهة وعن الآخرين من جهة أخرى . وتحكى الكتاب المقدس أن المصريين القدماء كانوا يكرهون أن يأكلوا جنبا لجنب مع العبريين ، فى حين أن الأنبياء اليهود طالما قالوا إن إسرائيل ستصبح نورا يضىء لسائر الأمم . كذلك نظرت الأمم الإسلامية إلى نفسها باعتبارها دارا للسلام ، بينما اعتبرت العالم كله دارا للحرب . وقد كان للاذان قبل هتلر نشيد وطنى يقول أن ألمانيا فوق الجميع ولعل ديجول لم يكن الفرنسى الأول الذى تحدث عن دور فرنسا الحضارى فى العالم .

وهكذا فإن خرافة التفوق الحضارى للأمم بعضها على بعض ، وفى نفس الوقت اتهامها بوحشية بقية الأمم الأخرى وعدم الاعتراف بأن سائر الأمم تمثل الحضارة بأى حال .

وإلا فما معنى أن يسمى الانكليز أحد الأمراض بالمرض الفرنسى مع أنه الذى يكاد لا يخلو من الاصابة منه أمة من الأمم . وما معنى أن يسمى الفرنسيون المرض ذاته بالمرض الإيطالى . وما معنى أن يطلق الانكليز فى الشرق الأوسط على المصريين لقب « عجم » وهو لقب لا ينطوى على معانى الاعتزاز على أى حال ؟ وأن يبعث أهالى أمريكا اللاتينية أهالى أمريكا الشمالية بالخطر – جمع أخضر –

وأن يكون اسم « يهودى » فى كافة اللغات الأوربية المرادفة للشح والبخل . وأن تحمل لفظة « جوى » الذى اليهود . ومعناها « لا يهودى » معانى الحمق والغشوة .

أغلب الظن أن أصل هذا الاستغراب فى أفكار الأمم عن نفسها وعن الآخرين يعكس قلق الأمم تجاه ما هو مختلف عنها . على أساس أن ما يختلف عنا قد يجتذب انتباهنا ويولد

حب استطلاعا . ولكنه في الوقت نفسه يبعث فيا الخوف من كل ما هو مختلف ينظر إليه على أنه خطر يتهددنا أو يتهددنا بالخطر . ولا شيء يزيد النفس أكثر من الشيء المجهول . وليس لنا أشد بعثا على الاطمئنان من أن يحيط بنا ما هو معروف ومألوف .

وعلى ذلك فخوفنا من الشيء المختلف هو خوف من الخسارة وأن إمكانية الخير .

ولذلك فإنه عند ترجمة هذه المخاوف إلى معاني المصلحة الوطنية تكون النتيجة رفضا قاطعا لغاية كل ما هو مختلف والتعايش معه . ولربما كان هذا هو أحد العوامل الأساسية لنشوب النزاعات والحروب . فهكذا كانت بعض المواقف العربية تجاه إسرائيل تتسم مثلا بالرغبة في اختفاء الدولة اليهودية اختفاء كليا . وهكذا أيضا كانت الدولة اليهودية بالنسبة إلى الكثير من العرب أمرا شاذا . من الواجب العمل على إبادته . ولكن هذا الهدف تغير بعد ذلك عندما تبين أن العالم أكبره قد اعترف على رقعته مثل هذه الدولة . فأصبح الرأي العربي المصحح - المهذب أن السلام مع إسرائيل لا يمكن أن يحل إلا بعد أن تغير إسرائيل طبيعتها . وقد أضاف بعض المصريين مؤخرا إلى هذا أنه بعد أن يحل السلام ستعترف إسرائيل بالمؤثرات العربية مثل العادات والعرف والحضارة العربية كما سيجب عليها أن تعترف إسرائيل بأنها شرقية وتفقد مزيتها اليهودية الخاصة .

هذان إذن هما طرفا الاستقطاب : جانب يريد الآخر أن يتعدم أو على الأقل أن يتغير جذريا وكليا . والجانب الآخر يخشى الانعدام والتغير وفقدان المزايا الخاصة .

ولم نجد في عشرين السنوات الثلاثين الأولى من النزاع اعترافا لدى أي من الجانبين بأن للجانب الآخر حقا في أن يكون مختلفا في مواقفه كلها . فإن النزاعات ليست بهذا الشكل . وبسبب الاستقطاب تميل النزاعات التي لم تحل صفة الأبدية عن العدو وأن نجعل منه مخلوقا ذا صورة معينة .

بعد حرب أكتوبر جاء منتج سينمائي إلى إسرائيل ومصر لانتاج فيلم وثائقي عن عائلة لكل . وعندما أجرى هذا المنتج مقابلة مع أم مصري في السادسة عشرة من العمر كان أخوه الطيار قد قتل في الحرب . أخبرت الفتى المصري عن كراهية جديدة لإسرائيل وتعطشا للانتقام . عندما عرض المنتج أمام العائلة المصرية فيلما كان قد صوره عن عائلة إسرائيلية فقدت هي الأخرى أحد أبنائها في الحرب . فكان الفتى المصري عندما رأى الفيلم وقال : لم يدر في خلدي أن الإسرائيليين يشبهوننا هذه العائلة . أي أصبح كل ما قلته من قبل لقد حطم الفيلم الصورة عندما ظهر العدو فجأة بشكله الإنساني . بشكل من يمكن التعبير بشعوره والإحساس بعواطفه .

لعل أهم وظائف التثقيف والتعليم إبان عملية السلام هي العمل على إبدال الصورة المعينة بمفاهيم إنسانية . وعلى الأقل من مرحلة جمع الخرافات إلى مرحلة التفاهم الإنساني . وباختصار إزالة المخاوف التي كانت حتى اليوم تحدد مفاهيمنا . وكثيرا ما تقيدها .

ولكي نحقق اليسير جدا من الأفكار المسبقة إلى التعاطف أي من موقف مغلق ومشبع بمشاعر الخوف والقلق إلى موقف مفتوح من علاقات العطف المتبادل علينا أن نقف بعضا بعضا في موضوعين اثنين على الأقل . أحدهما أنه علينا أن نجعل الطرف الآخر يرى ما هي الصور المعينة التي كان قد خلقها هنا وإلى تكرهها ولا نحبها وأن علينا أن نبحث عن وإياه طرق لإزالة هذه الصور ونحوها . والآخر . علينا أن نتعارف ونتطلع بشكل متبادل على ما تميزنا الواحد عن الآخر وعلى ما هو مشترك بين مجتمعينا .

فيما يتعلق بمصر وإسرائيل برزت صورة معينة . فمن الجانب المصري . اليهودي مختلف ومحيط بالنسبة لمعاني بين الإنسان . الإسرائيليون عدوانيون واستعماريون . الصهيونية حركة عنصرية . إسرائيل شكل حديث من مملكة الصليبيين . الإسرائيليون لا يؤمنون . وفي الجانب اليهودي . العرب نازيون . العرب سفاكو دماء . العرب يتآمرون دوما على تدمير إسرائيل . العرب لا يؤمنون .

ان الخطوة الأولى بعيدا عن هذه الأفكار المغلوطة هي في النظر إلى هذه الأفكار على أنها حقا أفكار مغلوطة أصلا . والخطوة الثانية الكفيلة بالنجاح يجب أن تكون اتخاذ قرار ملزم من جانب كلا الطرفين بالامتناع تماما عن استعمال هذه الأفكار المغلوطة . وإذا استطاع كلا الطرفين بهذا الشكل أن يطورا وسيلة جديدة لإزالة مثل هذه الصور المعينة من عقول شعبيهما فإنهما يكونان بذلك قد أفادا مجتمعيهما وأغنيا التجربة العالمية في مجال الثقافة والتعليم .

على أن الابتعاد عن الصور المعينة لا يعدو كونه جزءا فقط من عملية التثقيف والتعليم . وهو يمكن إذا توافر الاستعداد لاستكشاف ما هو مشترك للشعبين وما هو خاص وثمين لكل منهما . وفي حالة إسرائيل ومصر عدد من الصفات المشتركة التي تشتمل مثلا على قدمهما . وعلى كونهما ينتميان إلى أصل مشترك بحكم كونهما من سلالة إبراهيم الخليل عليه السلام . وعلى كون لغتيهما من أصل سامي واحد . وعلى أنهما يؤمنان بدينين موحدين بالله . وعلى كونهما تحددان كيانهما السياسي بعد قرون وقرون من التحكم والتعسف الأجنبي . وعلى روح المرح التي يتسم بها كلاهما . وعلى كثرة وتعدد مشاكلهما الثقافية والتعليمية .

أما ما هو خاص بمصر فحضارة وادي النيل . وتراث الفراعنة . وكون مصر مركزا للعالمين العربي والإسلامي . وعظم وعسر مشاكلها السكانية المتأتية عن زيادة مليون نفس في السنة . وأساليب الحياة الخاصة بمصر .

وأما ما هو خاص بإسرائيل فحضارتها المستمدة من الكتاب المقدس . وكون أورشليم مدينة يتنقل المرء فيها في ظرف دقائق عبر الفين من السنين . وامتلاك تاريخ جميعها الخاص على الكارثة وعلى الاستقلال . وإحياء اللغة العبرية وجمع شمل شتات الشعب في وطنه العتيد وكونها مرة أخرى مركز العالم اليهودي . والكيبوتس والموشاف وأقليتها العربية الكبيرة .

هذا قليل من كثير من العناصر المشتركة والخاصة .

إلا أن الصعوبة ليست في كيفية اعداد القوائم . بل كيفية جعل العناصر المشتركة والخاصة في هذه القوائم أساسا لبرنامج ثقافي وتعليمي فعال في كلا البلدين .

إن عملية التثقيف والتعليم يمكن تخطيطها في كلا البلدين في آن واحد على المستويات المختلفة التالية : تبادل المدارس والجامعات بين مصر وإسرائيل باستعراض مشترك لما تقوم بتعليمه الواحدة عن الأخرى . وبفحص واعادة كتابة كافة كتب التعليم التي تدور حول مصر وإسرائيل والنزاع العربي الإسرائيلي . لأن ما سيتعلمه أطفال مصر وإسرائيل في الغايات أحدهما عن الآخر سيؤثر أشد تأثير في كيفية تعايشهما في الشعبيات .

ولما كان الذين عندكنا الأمين جزءا لا يتجزأ من الحياة فإن جهدا خاصا يجب أن يبذل لاقامة حوار بين قادة دينيين من المسلمين واليهود . حوار يكون التوحيد بالله بالطبع محوره المشترك . ويكون من مواضيعه المشتركة كيفية قيام دينين متجاورين قادا أفضلا على رفض عبادة الأصنام بتجديد كفاحهما لمظاهر الشرك الحديثة التي منها الصور المعينة التي أشرنا ذكرها .

ولقد قال الرئيس السادات أكثر من مرة إن الوقت قد حان لسد الفوة التي خلقتها الآلاف السنين ما بين الديانتين . ولعل الخاتم الأكبر في اسرائيل للطوائف الشرقية الخاخام عمرديديا يوسف قد أدلى بسهم وافر من جانبه نحو تحقيق مثل هذا الحوار عندما نبه الإسرائيليين ألا يخلطوا أبدا بين مصر الحديثة وبين اسلافها في عهد الكتاب المقدس . إن مثل هذا التصريح لابد أن يكون له أثر عميق في أنفس جماعات إسرائيلية معينة متمسكة بالدين وبالتقاليد .

كذلك يتطوى دور القادة السياسيين في مجال التثقيف والتعليم على مكانتهم الاجتماعية على أهمية عظمى . وقد قدم الرئيس السادات مثالا على ذلك في بيان للأمة ألقاه بالتلفزيون على أثر التوقيع على معاهدة السلام . فقد كرس الرئيس السادات جزءا كبيرا من بيانه ليعدد للجماهير الإسرائيلية . بعض الحقائق الأساسية عن مصر وعن حضارتها وعن مشاكلها الراهنة وعلى غرار ذلك فإن في وسع الزعماء السياسيين أن يصبحوا مثقفين ومعلمين . وفي الإمكان أن يكون جزء هام من تعاليمهم على مدى الخوارة التي تلقن بها قادة الرئيس السادات قد أصاب لا شك عقول وقلوب مشاهديه وسامعيه عندما تحدث عن قضايا مصر تمهيدا للعطف والمحبة .

ولوسائل الإعلام هي الأخرى دور فعال وتعليمي واضح فإن في وسعها أكثر من تقديم مجرد أخبار . في وسعها أن تساعد على جعل حقائق الحياة في البلد الآخر أسهل فهما . فلو قدرة وسائل الإعلام خاصة التليفزيون أن تأتي بظروف الحياة في مصر إلى داخل البيت الإسرائيلي والعكس بالعكس .

كذلك السياحة . فإنها هي أيضا دور فعال في التثقيف والتعليم . فإن مصر ليست أهراما وشيلا فقط . وإسرائيل هي أكثر من حائط مبكى ومساعدا . كما أن الفنادق والمطاعم ليست بالضرورة خير الواجهات التي يمكن من خلالها مشاهدة المظاهر الأساسية للمجتمعات .

ومن العوامل الأخرى التي يمكن أن يكون لها دور واضح فعال في مجال التثقيف والتعليم هي العلم والتكنولوجيا . فهناك على سبيل المثال الخضر مجال للتعاون في أمور معينة كالزراعة والطب والهندسة المائية وعلم الآثار وأساليب التعليم .

وأخيرا . فإن أحسن السبل إلى التعليم والتثقيف هو تبادل التجارب . فعلى الجندي المصري والجندي الإسرائيلي يفهم أحدهما الآخر أكثر من فهم سائر المصريين والإسرائيليين بعضهم لبعض الآخر . وهذا يعود إلى أن الجنود من الطرفين قد كانت لهم تجارب مشتركة بحكم كونهم قد خاضوا أربع حروب وتبادلوا الخافيات لوقف النار وتوصلوا إلى السلام

المشترك . والظاهر أن الصحفيين المصريين والإسرائيليين هم أيضا قد تمت بينهم زمالة عميقة بفعل ما بينهم من مصلحة مهنية مشتركة . مثلهم في ذلك مثل رجال الأمن المصريين والإسرائيليين الذين كلفوا كل من جانبه برعاية وحماية زعمائهم فنشأت بينهم بفعل ذلك صداقات حميمة . وفي الإمكان أن نقول الشيء ذاته في المستقبل . عن أطقم الخطوط الجوية وأطقم كرة القدم والأطباء والمزارعين ورجال الأعمال والعلماء والباحثين والفنانين . كل هؤلاء . بواسطة العمل معا في مجالات عمل مشتركة يمكنهم أن يتفقوا ويعلموا بعضهم بعضا حول معنى المصري ومعنى الإسرائيلي . يمكنهم طبعا أن يفعلوا ذلك بشكل مفيد أو بشكل ضار .

لقد عالجنا في السطور السابقة سلسلة من امكانيات النشاط . ولكن علينا أن نتوقف لنسأل : هل هذه الامكانيات سهلة التحقيق مثلما يبدو لأول وهلة عند ذكرها

نقطة انطلاقنا هي الحاجة إلى تغيير المفاهيم . ولعل وجود مفاهيم متقاربة لدى كلا الطرفين بشكل أحد العقبات في تطور أية عملية من عمليات التثقيف والتعليم . وعلينا الا ننسى أن المصريين والإسرائيليين شعبان يمتلكان مفاهيم مختلفة جدا في مواضيع ومجالات عالية مختلفة . ثم إن مصر أمة قوامها أربعون مليون نسمة تتكاثر بستة ملايين نسمة في السنة . بينما اسرائيل لا يزيد تعدادها كثيرا على ثلاثة ملايين ونصف المليون أي أن عدد سكان مصر يزداد في ظرف كل أربع سنوات بمقدار عدد سكان إسرائيل بأسرها . وعلى ذلك فان مصر يجب أن تشعر بالتعاطف مع بلدان كفرنسا أو ايطاليا بينما قد تبدو إسرائيل في نظرها بلدا صغيرا . والصغير بالطبع أقل خطرا من الكبير . ولكنه أي الصغير قد يكون موضع احتضان وحماية . على أنه إذا أخذنا في الدخل القومي فالوضع يبدو على عكس ذلك . فالدخل القومي بالنسبة لكل نسمة في مصر لا يزيد على ثلاثمائة دولار . في حين أنه في إسرائيل يقارب الثلاثة آلاف دولار الأمر الذي يعني فرقا عظيما في مستوى المعيشة وفي طبيعة الحياة . وكما قال هارولد لاسكي قبل جيل من السنين : ان الشعوب التي تعيش على مستويات مختلفة تكون أفكارها أيضا مختلفة .

ولعل أهم الفوارق يكمن في سلم القيم الذي تعين المفاهيم على أساسها . فإن ما يعتبر كماليا في مجتمع من المجتمعات يعتبر ضروريا في مجتمع آخر .

وعلينا الا ننغلق من أهمية حقيقة كون الملايين المتعددة من المصريين يتمسكون باللغم الإسلامية وهذه اللغم مثلها مثل غيرها أية دياة عقائدية تمنع التسامح أحيانا تجاه الأجنبي وتجاه الحضارات المختلفة . ولقد خاب الإسرائيليون الذين زاروا القاهرة خلال السنتين الماضيتين صدى مهددا كلما اعربوا عن رغبتهم في زيارة جامعة الأزهر التي تعد أهم مركز للابحاث الإسلامية في العالم . وعلينا الا ننسى ايضا أنه لا يزال هناك بين المصريين المثقفين تيارات فكرية راديكالية تدين أوتوماتيكيا بعقائد معادية للغرب وللصهيونية وبالطبع لإسرائيل أيضا . إن مفاهيم مثل هذه الجماعات الدينية منها والراديكالية كثيرا ما تكون مسدودة ازاء أي تغيير . ذلك لأن استعداد الجماعات للتعليم من العالم ينحصر في عقائد محدودة ترفض التعديل والتبديل .

ما اليهود الذين عانوا من العديد من الشعوب على مر العصور فقد يكونون أشد قدرة على تفهم ومسالمة طرق حياة مختلفة . ولكن بين العديد من اليهود في إسرائيل لا تزال تسود مشاعر قديمة من الخوف وعدم التسامح تجاه الأجنبي . هؤلاء هم القلة ولكن قدرتها على التعبير عن نفسها ومقدار نفوذها في السياسة الإسرائيلية تزيد كثيرا عما يقتضيه عددها القليل .

وإذا كان ثمة مجال محظور يبغي فيه بشكل خاص أن تلعب عملية التثقيف والتعليم دورا عميقا فإن هذا المجال هو المتعلق بالمسألة الفلسطينية . فان كثيرا من الاسرائيليين لا يزالون في حاجة إلى أن يتعلموا إنه بدون حل عادل للمسألة الفلسطينية فان النزاع العربي الإسرائيلي نفسه يبقى بعيدا عن الحل . كما أن كثيرا من العرب وخاصة العرب الفلسطينيين يجب ـ يتعلموا ويدركوا أنه ما داموا لا يشرعوا علنا بالتعايش مع اسرائيل سيظلون عاجزين عن حل قضيتهم بالمدات

وهكذا فان الفلسطينيين والإسرائيليين عند تصارعهم بعضهم مع بعض اذا عملت كل طرف فيهم بأشد ما يرغب فيه الطرف الآخر . الاسرائيليون يمكنون عقائد احكم الدائق للفلسطينيين والفلسطينيون يمكنون عقائد البلاغ الخاطئ الماثل .

هنا ادن خانه مشكلة التعليم والتثقيف في أشد تعقيداتها فهل سنعتمد عملية التثقيف والتعليم بهدايا على تطورات سياسية يشكل فيه الفلسطينيون الموضوع الخاص أو سنعتمد التطورات السياسية على عملية تثقيف وتعليم تتحقق بالتدريج عند كلا الطرفين ؟ هذه هي الأسئلة التي طرحناها في بداية هذا الفصل هي التي تعد الخاص السياسية أو أن الصالح هي التي تعين الصالح .

ومهما يكن الأمر فمن المهم من التأكيد علينا أن ننظر إليه في سياق عريض عام . وهذا سيكون آخر موضوع نبحثه .

لكل من يتطلع الى أوضاع الشعوب في عهدنا هذا لابد أن يدهشه عدد من التطورات التي قلما يمكن اعادتها إلى أصلها على مر الزمن . من هذه التطورات ثورة وسائل الاتصال بين الشعوب تما يجعل منها من تقارب مطرد بينها . ففي مدة ساعة من الطيران بين مصر إلى اسرائيل اخترق الرئيس السادات نواحا عشرة جيل من الزمن . فقد أصبح فجأة في وسع الإسرائيليين والمصريين الذين كانوا حتى هذا الحدث لا يعرف بعضهم بعضا مباشرة إلا بالحرب أن يدخلوا معا في تجربة مشتركة عن طريق التلفزيون والراديو . فعندما استعرض الرئيس السادات حرس شرف اسرائيلي . أو عندما عزفت فرقة عسكرية مصرية النشيد الوطني الاسرائيلي على شرف رئيس الوزراء مناحم بيجين . كان الملايين من المصريين والإسرائيليين في آن واحد وكأنهم حاضرون في تجربات الأحداث . ان مقدرة شعب ما مباشرة على المشاركة الفورية في حدث تاريخي لم يكن في الإمكان حدوثه قبل جيل من السنين .

إن عادة يمكن فيه الوصول من القاهرة إلى أورشليم ومن أورشليم إلى القاهرة في ظرف ساعة واحدة لحسب عالم لا يعد فيه كل من القاهرة واورشليم أكثر من أربع ساعات من أوربا واحدى عشرة ساعة من أمريكا . لعالم يمكن فيه لرؤساء دول ورؤساء حكومات من الاتصال ببعضهم بعض بالتليفون إنه عالم أصغر وأقرب وأشد اختلافا من العالم الذي ولدت فيه هذه الأمم والذي اتسم بالتحزب وبانعدام الثقة وبخلق الخرافات

على أن هذا الاتصال الفوري وهذا القرب الممكن بطريقة النقل السريع لا يعدوان عن كونهما وسائل ووسائط . فإن ما يحصل بين الأمم عندما تتوافر لديها هذه الامكانيات هو المشاكل العسيرة الحل . فهل يفهم ويقدر الملايين من السياح الذين يزورون بلادا اجنبية الحضارات الإنسانية التي يصادفونها والتي قد تكون على أشد الاختلاف مع حضاراتهم ؟ وما هو رد فعل الشعوب عندما تجابه الأجانب وحضاراتهم الأجنبية بين ظهرانيها ؟ انتشرت علنيا كوبنها ووجدانيها القومية ؟ أقلا تعود في مثل هذه الأوضاع إلى الخوف القديمة . من الغريب والمختلف الذي يتهددنا بالانحراف وتغييرنا إلى درجة لا يمكن التعرف علينا بعدها ؟ لاشك أنه ليس ثمة أجوبة سهلة عن هذه التساؤلات . غير أنه من الواضح إذا استخدمت وسائل الاتصال والنقل بصرف النظر تماما عن الهدف التعليمي والتثقيفي فإن النتيجة لابد أن تكون ليست التفاهم بل سوء التفاهم وشعور الغربة المتبادل .

والتطور المدخل الثاني هو ارتفاع أسعار الحروب الحديثة بشكل هائل لدى كل الأمم الكبيرة والصغيرة . وما يترتب على ذلك أن فوق تكاليف حرب أخرى بشكل هائل كل ما تكتب من هذه الحرب . وفي الشرق الأوسط أصبحت الجيوش الحديثة المزودة بأحدث الأسلحة واحكمها تتوثب كوحوش كاسرة تهدد كافة الشعوب المتورطة مباشرة بالنزاع العربي الإسرائيلي . وليس بين هذه الشعوب واحد يستطيع توفير ميزانية دفاعه من جيبه الخاص . بل كلها تحتاج الى العون الخارجي الكثير .

والتطور المدخل الثالث هو زيادة الاعتماد المتبادل بين الأمم اعتماد متبادل في تطوير مقومات الحياة والحصول عليها . وفي تبادل المنتجات والتكنولوجيا وفي مصاعب الحيلولة دون كوارث الحروب . إن اسرائيل في حاجة إلى البترول المصري . ومصر في حاجة إلى التكنولوجيا التي مكنت إسرائيل من انتاج الفلفل المجفف الواحد عشاريني تبلغ ثلاثة أضعاف ما ينتجه الفدان في مصر . وكل من مصر واسرائيل شاءتا أم ابتا تعتمدان على الولايات المتحدة في المجالات الاستراتيجية والاقتصادية . ثم ان العلاقات الاستراتيجية بين الدول العظمى تحد من حرية المناورة بدول الشرق الأوسط فما يحدث في الشرق الأوسط يؤثر في سير الدول إلى أوربا وأمريكا . والتكنولوجيا والمنتجات الأوربية والأمريكية لابد أن تؤثر في نوعية الحياة في الشرق الأوسط

قد يكون الاعتماد المتبادل معقدا ومشوقا للهضم . وذلك لأنه يناقض ما كان مألوفا في القديم من أن تكون السيادة القومية مرادفا للاكتفاء الذاتي . على أن ذلك ليس بعد من المستطاع في عالمنا الذي صار يشكل نظاما متشابكا متضافرا . وليس ثمة دولة حتى لو كانت قوة عظمى تستطيع حل مشاكلها لوحدها . وما هو صحيح بالنسبة إلى العلاقة كالولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي والصين يصبح أكثر بالنسبة للأمم الأصغر كمصر واسرائيل . فإذا كنا نريد حقا أن نحل مشاكلنا فلم يعد في وسعنا أن نفعل ذلك وحدنا بل لابد من التعاون في ذلك مع أمم أخرى . هذا هو اذن الموضوع الأكبر الثالث لمهمة التثقيف والتعليم وانه لموضوع عسير خاصة لأنه من نواح متعددة يعكس المفاهيم القديمة التي كانت تنطوي على التشكيك في كل ما هو أجنبي . ولعله ينبغي أن يكون من أهم أهداف التعليم والتثقيف ازالة كلمة « أجنبي » من قاموس مواقفنا . بدل أن نقول « أجنبي » لنقل « مختلف » فاننا جميعا ننتمي إلى نفس المجموعة من الأمم والشعوب التي تختلف عما قد تكون هي في واقع الأمر القادرة على إعانتنا خير اعانة على حل المشاكل التي لا نستطيع حلها وحدنا .

هذه المواضيع الثلاثة للتعليم والتثقيف تنتمي في نقطة واحدة فان ازدياد الاتصالات المتبادلة وازدياد الاعتماد المتبادل هما تطوران بعيدا الذي لا مناص للمجتمعات البشرية من المشاركة فيها في نهاية المطاف . والحق بل الحقيقة التي لا مناص للأمم من تعلمها في حالة اعتمادها في غداة الأساليب القديمة من التناحر والانفصال هي كارثة هائلة مريعة . فعلينا منذ ذلك أم ابينا أن نتعلم التعايش لأن التعايش يبقى في الاتجاه الذي لا مفر منه في سيرة الأمم .

فعلى الحل القادم في كل من مصر واسرائيل ان يتجاوز أيس فقط على أساس الانتصار بالانتماء إلى اخوتي . بل كذلك على أساس أن يتعلما وان يدركا أنهما شريكتان في مجموعة الأمم المتكافلة المتبادلة الاعتماد . فلكل مختلفين بعضا عن بعض ولكن بدون تباعد . ولتتعلم الاعتماد بعضا على بعض مع دعم وتأييد استقلال كل منا . ولنقم معا بتغيير أساليب النزاع القديمة ولتزل الجهالة بحدوثنا السلام الذي سناه ولحمته : أن نتعلم وان نعلم التعايش □

دار المعارف

تقدم

من كتب د. عبد الحليم محمود

- محمد رسول الله
- القرآن فى شهر القرآن
- الحمد لله هذه حياتى
- فتاوى عن الشيوعية
- فاذكرونى أذكركم
- الصلاة أسرار وأحكام
- الطريق إلى الله
- الإسراء والمعراج
- شهر رمضان
- القرآن والنبى
- سفيان الثورى
- السيد أحمد البدوى
- أوربا والإسلام
- أبو ذر الغفارى والشيوعية

دار المعارف